محمد بن تاويت الطنجي

إحسان عباس*

عرفته عميق الثقافة في الفلك والتاريخ والحديث والأصول نموذجاً للمتخرج في «المدرسة الإسلامية» و في ما كان يمليه المشايخ في جامع القرويين، ولهذا لم يكن غريباً أن تنتدبه الجامعة العربية لتصوير المخطوطات العربية القيمة من أكثر خزائن المخطوطات في العالم وبخاصة في إستانبول، حيث التقيت به بعد سنوات من لقائنا العابر في القاهرة. فإن قلت إنه كان المؤسس الأول لمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية بمصر، لم أبعُد، ولم أهضم حق أساتذة آخرين شاركوا في هذه المهمة، وكلهم كان يعمل بإرشاده وتوجيهه.

كان محمد بن تاويت الطنجي رحمه الله إلى جانب خبرته العريضة في مناحي التراث غيوراً على الثقافة العربية الإسلامية ولذلك اختار لعمله في هذا الميدان عدداً من أمهات الكتب العربية

---

* عمل أستاذاً في أكثر من جامعة عربية. وهو الآن مقيم بالأردن

واستطاع أن يبعثها إلى الحياة مثل «جذوة المقتبس» للحميدي، و«ابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً»؛ وكان متأنياً في العمل متثبتاً في التوثيق؛ أذكر أني في إحدى زياراتي لإستانبول سألته عن عمله في المقدمة فأنبأني أنها تكاد تكون جاهزة للنشر، وعرضت عليه أن أضطلع بنشرها في بيروت باسمه، وأن أتولى إقناع أحد الناشرين بأن يجزل مكافأته على جهده الكبير فيها، فأعجبه هذا الاقتراح أول الأمر ومضينا نشرب الشاي في أحد المقاهي ونتحدث، في جذل، حول ما اتفقنا عليه، وفجأة رأيت الكدر قد أخذ يخالط قسماته، فلما استفسرته عن سر ما لحظته من تغير لديه، هتف في غضب ممزوج بالضحك قائلاً: أنت شيطان، تريد أن تستنزلني عما جعلته مبدأً لنفسي؟! أنا لم أتعود أن أعمل من أجل مال أكسبه، ثم إن تحقيق المقدمة لم يتم بعد، وحين سيتم فلكل حادث حديث. فغيرنا وجهة الحديث وقلت لنفسي، ثم قلت له: ولكن أنت تعلم أن غايتي هي خدمة فكر ابن خلدون، وخدمة القراء الذين عاشوا على قراءة مقدمة لم تتحقق تحقيقاً علمياً، وليس لها غيرك. على أية حال سامحك الله فأنا صديقك وما أظنك تقبل أن تصادق شيطاناً.

وجاءني بعد ذلك بقليل نبأ وفاة محمد، فانهار ركن كنت ألوذ به وأطمئن إلى علمه وإنسانيته، وحين أتيح لي أن أعود إلى إستانبول معزياً سألت عن مصير «المقدمة» و«الفهرست»، وسعيت إلى إنقاذهما من الضياع بكل وسيلة، وفاءً لذكرى صديق عزيز، فلم أفلح. وتلك قصة تطول، لا أحب سردها هنا.

وأحب أن أقول قبل أن أختم هذه الشهادة أن محمد بن تاويت الطنجي كان نموذجاً في الكرم في تعامله معي، ومع غيري من أبناء البلاد العربية الذين يؤمون إستانبول، لم أطلب مخطوطاً منه إلا زودني منه أو بميكروفيلم، ولم يتأخر عن مساعدة أي زائر عربي فيما يريد الوصول إليه؛ وكان جميل الحديث، يميل إلى ترصيع حديثه بالنكتة الموجزة المصورة.

وقد جذبته إستانبول بجمالها وآثارها الإسلامية الرائعة، وكان دوره في التدريس في كلية الإلهيات، سواء بإستانبول أو بأنقرة

عميقاً، وقد تخرج على يديه عدد كبير من الطلاب، أصبحوا أساتذة في ميادين تخصصهم، وكان ذكره بين زملائه الأساتذة مقروناً بالتبجيل والإقرار له ولدوره بالعرفان والشكر.

إن أيامنا يا محمد في مكتبة السليمانية وفي قونيه لي وفي بريك أحنا، وفي بيتك الذي كان معموراً بالعلم والخير والمحبة، وفي أمسيات مقهى «ديوان» وفي زيارة المعالم الأثرية الباهرة وفي .. لا تزال تعيش في خاطري ووجداني.

هل تعلم أنني لا أقوى اليوم على زيارة إستانبول لأنني لا أجدك فيها؟